بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 28 نوفمبر 2022

فوكو محللا للخطاب

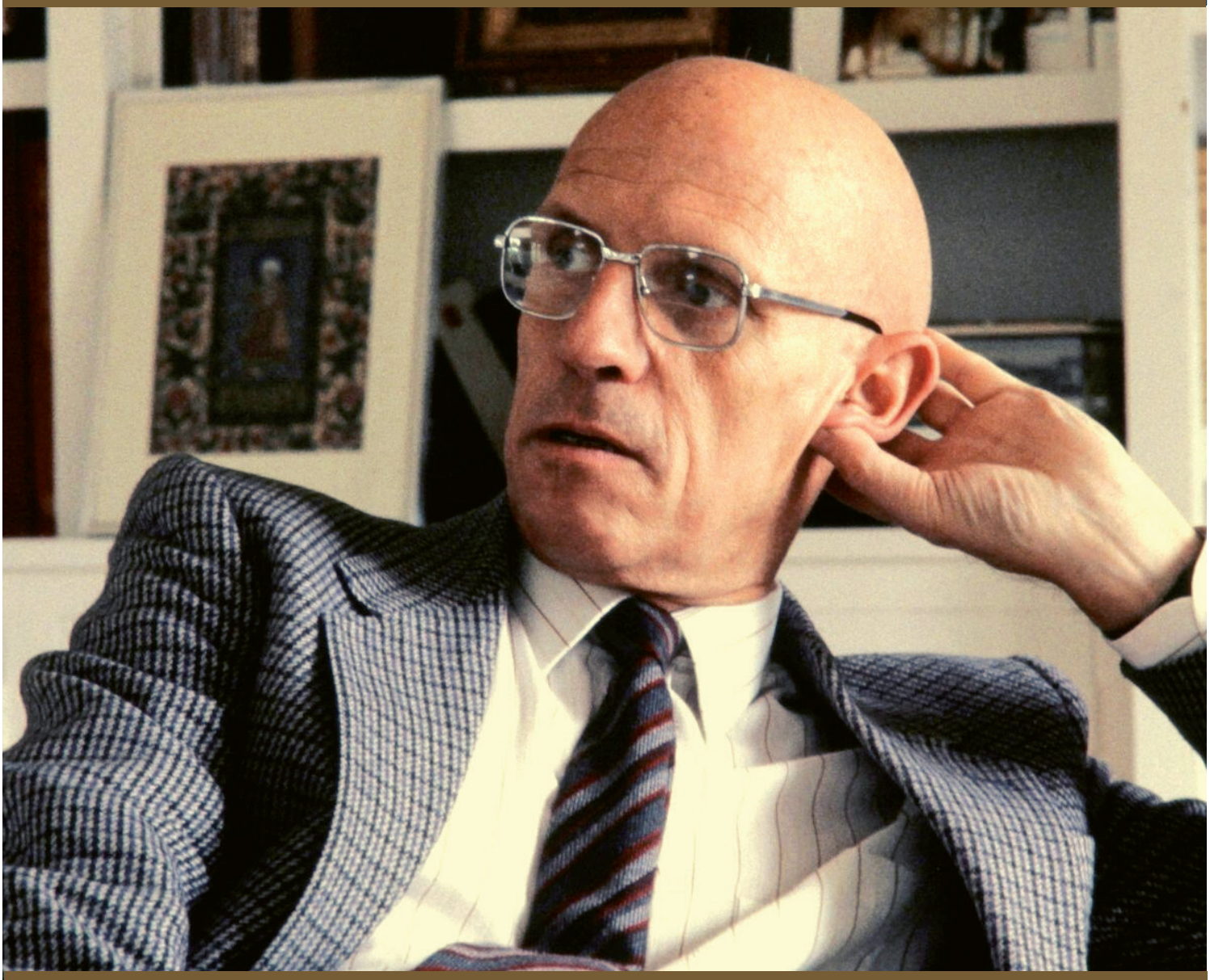

محمد صوضان
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022
All rights reserved © 2022

ملخص:

يسعى هذا المقال إلى تقديم نظرية الخطاب عند فوكو بوصفها شكلا من أشكال تحليل الخطاب مفارق للأشكال المعروفة في تحليل الخطاب ذي الأسس اللسانية والتداولية، بل والإيديولوجية. كما تهدف إلى رسم صورة تقريبية لتحليل الخطاب الفوكوي الذي يخترق مشاريعه الأركيولوجية والجينالوجية. والغاية، بالتأكيد، بيان تميزه وأصالته كشكل من أشكال تحليل الخطاب التي نمت في تربة علم الاجتماع والنظريات الثقافية، وصارت أساسا للكثير من تحليلات الخطاب ذات الالتزامات الأخلاقية والسياسية من قبيل التحليل النقدي للخطاب. كان تركيزنا في هذه المساهمة منصبا على مفهوم الخطاب عند فوكو وتعالقاته المفاهيمية والنظرية، وخاصة علاقته بالمعرفة والسلطة والذات، وعلى مفهوم تحليل الخطاب خلال مراحل مشروع فوكو التي فصلت بينها أحداث مايو 1968.

تمهيد

يعد ميشيل فوكو، إلى جانب شانتال موف وإرنستو لاكلو وغيرهم، من أبرز منظري نظرية الخطاب الذين أرفدوا تحليل الخطاب منذ نهاية الستينات بأفكار ومبادئ أغنت هذا الحقل المعرفي ورقته من كونه تحليلا فنيا تقنيا لسانيا إلى شكل من أشكال تحليل الممارسات الاجتماعية التي يشكل البعد الخطابي جانبا من جوانبه. ورغم اختلاف هؤلاء المنظرين في أشكال النظر إلى الخطاب وأبعاده المعرفية والسلطوية والإيديولوجية، إلا أنهم يلتقون في النظر إلى مركزية الخطاب في إنتاج العوالم الاجتماعية وتشكيل المعرفة وهيكلة البنى الاجتماعية والسياسية. وقد أضيف إلى هذا المنظور رؤى أخرى أقامت الخطابي والاجتماعي على علاقة جدلية تتوسطها الإيديولوجيا/ المعرفة مرة والسلطة مرة أخرى نحو السعي إلى الهيمنة الإيديولوجية، ومن ثم الاجتماعية والاقتصادية.

يشغل مفهوم «الخطاب» حيزا مهما في فكر فوكو وفلسفته المُؤَسَّسَة على تحليل الخطاب ضمن نظرية الخطاب، وترجع أهمية هذا المفهوم إلى كونه الموضوع المركزي الذي أدار عليه جل تحليلاته الأركيولوجية والجينالوجية؛ سواء في مرحلة اهتمامه بالمعرفة أو في مرحلة تحليلاته للسلطة وعلاقتها بالذات وفاعليتها. هذا فضلا عن أن المفهوم الذي قدمه فوكو للخطاب هو المعتمد في جل المقاربات النقدية لتحليل الخطاب، خاصة ذات المنحى الاجتماعي. تأثر فوكو في تحديده للخطاب ومن تم تحليل الخطاب، كغيره من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والإنسانية في نهاية الستينيات وما بعدها، بالمنعطف اللغوي المرتبط تاريخيا بفتجنشتاين (Wittgenstein)، والذي حول دراسة العلوم الاجتماعية والفلسفة من دراسة الظواهر في حقيقتها الواقعية إلى دراستها في حقيقتها الخطابية، فضلا عن تأثره بنيتشه (Nietzsche) خاصة فيما يتعلق بمفهوم الجينالوجيا الذي ارتبط عند نيتشه بالأخلاق، وحوله فوكو لدراسة علاقات السلطة. ويمكن أن نعتبر كتابه «أركيولوجيا المعرفة، 1969» (L'archéologie du savoir) المترجم بـ«حفريات المعرفة» و«نظام الخطاب، 1971» من أهم كتبه التي تناولت موضوع الخطاب.

1. الخطاب وارتباطاته المفهومية عند ميشيل فوكو

يرتبط تحديد الخطاب عند فوكو بجملة من المفاهيم التي تقاسمه الماهية والوظيفة والإطار، من قبيل «الملفوظ» و«التشكيل/ التكوين الخطابي» و«الحقل الخطابي» و«الاستراتيجيات الخطابية» و«الممارسة الخطابية» وغيرها. ويقتضي منا تقديم تصور متكامل للخطاب عند فوكو الوقوف عند هذه الارتباطات المفاهيمية لنتبين موقع الخطاب منها، بوصفه موضوعا ملفوظا وكيانا تكوينيا وحقلا ميدانيا، وممارسة خطابية واستراتيجية، ومنطلقنا في ذلك أن الخطاب عند فوكو لا يتحدد بصورته الشكلية؛ منطوقة أو مكتوبة، فقط، بل بوصفه كذلك كيانا تكوينيا يخضع لتحولات وفق قواعد وآليات، كما أنه ممارسة اجتماعية تحكمه استراتيجيات داخلية وخارجية، فضلا عن كونه ينتمي إلى حقل/ ميدان معرفي تتفاعل فيه الذوات ضمن علاقات السلطة والهيمنة.

1.1. الخطاب وارتباطاته المفهومية عند ميشيل فوكو

يرتبط تحديد الخطاب عند فوكو بجملة من المفاهيم التي تقاسمه الماهية والوظيفة والإطار، من قبيل «الملفوظ» و«التشكيل/ التكوين الخطابي» و«الميدان الخطابي» و«الاستراتيجيات الخطابية» و«الممارسة الخطابية» وغيرها. ويقتضي منا تقديم تصور متكامل للخطاب عند فوكو الوقوف عند هذه الارتباطات المفاهيمية لنتبين موقع الخطاب منها، بوصفه موضوعا ملفوظا وكيانا تكوينيا وحقلا ميدانيا، وممارسة خطابية واستراتيجية، ومنطلقنا في ذلك أن الخطاب عند فوكو لا يتحدد بصورته الشكلية؛ منطوقة أو مكتوبة، فقط، بل بوصفه كذلك كيانا تكوينيا يخضع لتحولات وفق قواعد وآليات، كما أنه ممارسة اجتماعية تحكمه استراتيجيات داخلية وخارجية، فضلا عن كونه ينتمي إلى حقل/ ميدان معرفي تتفاعل فيه الذوات ضمن علاقات السلطة والهيمنة.

1.1. الملفوظ والخطاب

يتوقف تحديد الخطاب بالمفهوم الفوكوي على مفهوم «الملفوظ» ابتداء، لأن جل التحديدات التي قدمها فوكو للخطاب أسسها على مفهوم الملفوظ، الذي يترجمه البعض بالمنطوق، بوصفه أبسط جزء في الخطاب لا يقبل التجزيئ. يقول فوكو: «استخدمت في مناسبات عديدة لفظ منطوق، إما لأشير به إلى عدد من المنطوقات [...] أو لأميزه عن تلك المجموعات التي أسميها الخطابات (مثل ما يتجزأ الجزء عن الكل) ويبدو المنطوق لأول وهلة كعنصر أخير، أو جزء لا يتجزأ، قابل لأن يستقل بذاته يقيم علاقات مع عناصر أخرى مشابهة له [...] المنطوق أبسط جزء في الخطاب»[1]. تشكل الملفوظات وفق هذا التصور العناصر الذرية والوحدات الصغرى التي يتشكل من مجموعها الخطاب، وهي عناصر يمكن أن تستقل بذاتها، كما

يمكن أن تقيم علاقات مع عناصر تلفظية أخرى مشابهة أو مغايرة لها، و«تتميز بالمداية والحدث، والتذكر والاسترجاع، والتحول والتجدد»[2].

لا ينبغي أن يفهم الملفوظ عند فوكو وفق التحديد اللساني الذي يقرنه بالجملة أو المركب، ولا وفق التحديد المنطقي الدلالي الذي يماثله بالقضية المشكلة من محمول وموضوع ويبحث بالتالي علاقة الدلالة المنطقية بالواقع الخارجي. بل باعتباره حدثا تداوليا خالصا مدركا خارجا شكله اللغوي، ولحظة من لحظات الخطاب يرتبط بلحظات تلفظ أخرى بشبكة من العلاقات المعقدة والمتشابكة من جهة، كما يرتد إلى حقل من الموضوعات وإلى تشكيلة تلفظية تموقعه ضمن ممارسة تبادلية اجتماعية خطابية بوصفه قابلا للمفهمة كواقعة تلفظية مؤطرة زمانا ومكانا، لأنه في نهاية المطاف ليس وحدة منطقية ولا لسانية، بل هو وظيفة؛ «لذلك يمكن أن يتخذ شكل جملة، أو قضية، على الرغم من أنه يمكن أن يتخذ أشكالًا أخرى، مثل قائمة أو جدول على سبيل المثال. وبالتالي، فإن هذا يوسع نطاق ما يمكن تحليله ليشمل، على سبيل المثال، حزم برامج الكمبيوتر؛ ليس فقط محتوى ملاحظات الحالة، ولكن أيضًا (وربما الأهم) تصميمها وهيكلها؛ حتى البيئة المبنية من حيث كيفية تقسيم المساحة وتخطيطها»[3]، وهو على هذا النحو فإن الملفوظ «يوصف في مساره على صعيدين في آن هما التزامن والتعاقبية. أما التزامن، فيعني أن خصوصية تلفظه تدرك كما لو كانت خرقا لنسيج خطابي موجود، وأنه مرتبط بأوضاع تستثيره وبنتائج يستفزها؛ أم التعاقبية فبمعنى أنه لكونه حدثا فريدا منذور للتكرار والتحول وإعادة التحريك [...] وأنه مرتبط في الوقت نفسه حسب وجه مختلف، بملفوظات تسبقه وتليه»[4].

حاول فوكو تجاوز الصورة الشكلية للملفوظ التي تقابل الجملة والتركيب في النحو، كما حاول مجاوزة صورته الدلالية التي تقابل القضية في المنطق ليؤكد على أن الملفوظات إنما تتوزع وتتبعثر تاريخيا وراهنا ليس باعتبارها، كما ذكرنا، بنيات تركيبية ومنطقية، ولكن بوصفها أحداثا ووظائف خطابية تاريخية محكومة بقواعد تتحكم في ظهورها وتوزيعها وتحويلها ومحوها وانبعاثها وتجددها، ومن تم فإن أي تحليل يستهدف الملفوظات عليه أن يدرسها في وجودها، ويراعي إعادة بناء ذاكرة تلفظية لتلك الملفوظات المبعثرة في فضاء زمكاني (الفضاء الغربي والعصر الكلاسيكي والحديث وعصر النهضة كما فعل فوكو) انطلاقا من أرشيفها وسياقاتها التاريخية باعتبارها أحداثا ووظائف، بناء أركيولوجيا قوامها الاستمرارية والمحو/النسيان.

---

2 بغورة، الزواوي (2015)، **الخطاب؛ بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشيل فوكو- دراسة ومعجم**، مكتبة لبنان ناشرون/ صائغ، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى. ص 386

3 Garrity, Z. (2010). «*Discourse analysis, Foucault and social work research*». Journal of Social Work, 10(2), 193-210. P 201

4 شارودو، باتريك. منغنو، دومينيك (2002/ 2008)، **معجم تحليل الخطاب**، ترجمة: المهيري، عبد القادر. وصمود، حمادي، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة- تونس، ص 58

لا يتحدد الخطاب عند فوكو بمستواه الألسني أو المنطقي كما هو الحال بالنسبة إلى الملفوظ، وإنما بوصفه شكلا من أشكال الحديث حول أي موضوع، وأحد الطرق المؤسسية للحديث التي تنظم التصرف وتدعمه، وبالتالي تؤدي إلى ممارسة السلطة عبر الاستاد إلى المعرفة بصيغتها الإنسانوية، وهو في الآن نفسه مجموعة من الأفكار أو طريقة التفكير النمطية التي يمكن تحديدها في التواصلات النصية واللفظية، وفي البنيات الاجتماعية الأوسع. يعرفه فوكو بقوله: «هو أحيانا يعني الميدان العام لمجموع المنطوقات (enonces) وأحيانا أخرى مجموعة منتظمة من المنطوقات، وأحيانا ثالثة ممارسة لها قواعدها، تدل دلالة وصف على عدد معين من المنطوقات وتشير إليها»[5]. ويحدده في موضع آخر بالقول إنه «مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية، قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية، يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ [...] بل هو عبارة عن عدد محصور من المنطوقات التي تستطيع تحديد شرط وجودها»[6].

يتردد مفهوم الخطاب، إذن، حسب التحديدين السابقين بإحالته على الميدان أو الحقل الخطابي بما يدل عليه من معرفة مؤسسة على موضوع محدد وتقدم بصدده وجهة نظر معينة مؤسسة على خلفيات خاصة. أو بإحالته على نسق من الملفوظات يحكمها تنظيم معين وتكوين خطابي محدد ذي شروط نوعية، كما يحيل على الممارسة التفاعلية وهنا يتساوى مع الملفوظ ذاته ما داما معا موضوع للتبادل ووسيلته. يفهم من الحالة الأولى أن الخطاب ينصرف على كل أشكال التفاعل التواصلي الدائرة حول موضوع محدد وفي فلكه، من قبيل موضوعات السياسية والدين والتاريخ التي تدار حولها الخطاب السياسي والديني والتاريخي، والخطاب بهذا المعنى لا يتحدد ببنيته وقواعد تشكله بقدر ما يتحدد بمضمونه المعرفي والفكري. أما في الحالة الثانية فما يهم في الخطابات المختلفة هو قواعد تشكيلها وتكوينها معرفيا وبنيويا وشروط وجودها التاريخي وانبثاقها وامحاؤها؛ ففي كل خطاب سياسي مثلا نجد جملة من الملفوظات المحدودة المرتبطة بعلاقات يحكمها نمط تكويني معرفي محدد وتشترك مع ملفوظات أخرى في قواعد التشكيل ذاتها، كما أن تشكيل الخطابات خاضع لأبنية معيارية وقواعد داخلية محددة، وسياقات وجود وانمحاء ثابتة تخضع للتحول والاستمرارية والانقطاع. وبخصوص الحالة الأخيرة نلفي أن التحديد يلغي المعيار الكمي بين الخطاب والملفوظ ويركز بدله على الكيفي المتمثل في الممارسة ما دام ما يهم هو وظيفتهما في التفاعلات التبادلية. إن الخطاب في المحصلة النهائية «مجموعة من الأقوال [/الملفوظات] بوصفها تنتمي إلى التكوين الخطابي ذاته... والخطاب يتكون من عدد محدود من الأقوال، يمكن أن نعين لها مجموعة من شروط الوجود،

5 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 78

6 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 111

فالخطاب بهذا المعنى ليس شكلا مثاليا متعاليا على الزمن ... فهو في كل أجزائه تاريخي وهو جزء من التاريخ... وهو يطرح مشكلة حدوده الخاصة وانقطاعاته وتحولاه وصيغه الزمنية»[7].

إن الخطاب، كما تقدم جملة من الملفوظات والممارسات الخطابية المنظمة وفق قواعد معينة؛ تمثل ملفوظاته التي يتكون منها وحداته الذرية، بينما تكون التشكيلات الخطابية وحداته الكبرى، وتشكل بدورها حقولا خطابية تحكمها قوانين التكوين والتحويل والاستمرارية والتعديل. إنه بهذا المفهوم الأركيولوجي غير محصور في حدود النص، أو العمل، أو حقل أو ميدان ذي حدود حاصرة من الموضوعات، بل بوصفه فضاءَ تبعثر ملفوظات وتوزعها وانبثاقها وتفاعلها أو امحائها، ومجموعةً من الملفوظات المحكومة بقواعد ثابتة نسبيا تفرض قيودا تحدد ما يكون له معنى ضمن إطار نظام واحد للمعرفة في مرحلة تاريخية محددة يقدم نفسه على أنه الحقيقة الوحيدة، وهو بهذا الشكل وقائع مادية تاريخية، لكن ليس مجرد انعكاس محض للواقع، بل على العكس من ذلك تماما، إذ يقوم بتشكيل الواقع والعمل على التمكين له وإدامته، «فلولا الخطابات، لما كان هناك وجود للواقع (الاجتماعي). ومن ثم، يمكن فهم الخطابات على اعتبار أنها واقع مادي فريد من نوعه؛ فهي ليست واقعا ماديا من الدرجة الثانية، ولا تقل من حيث درجة ماديتها عن الواقع الحقيقي، ولا هي مجرد وسيط سلبي يدمغ فيه الواقع؛ وعلى هذا، فإن فالخطابات [...] وسائل إنتاج اجتماعية، وليست «إيديولوجيات» مجردة، ويعزى ذلك إلى أنها تعمل على إنتاج الموضوعات والواقع»[8].

2.1. التشكيلة الخطابية

تؤدي الخطابات في علاقتها بالتشكيلة الخطابية الدور نفسه الذي تؤديه الملفوظات في علاقتها بالخطاب، فإذا كان الخطاب يتكون من جملة من الملفوظات المتعالقة أو المستقلة، فإن التشكيلة الخطابية تتكون من جملة من الخطابات أو مجموعة من الملفوظات المرتبطة فيما بينها بعلاقات على مستوى الملفوظات ذاتها. يحددها فوكو في قوله: «التشكيلة الخطابية [...] بالمعنى الدقيق، مجموعة من المنطوقات [...] ترتبط فيما بينها على مستوى المنطوقات»[9]. وهي كذلك «المنظومة المنطوقية العامة التي تحكم مجموع الإنجازات اللفظية»[10]. تتفق، إذن، التشكيلة الخطابية مع الخطاب في تشكلهما وتكونهما من «الملفوظات» بشكل أساس، لكن التشكيلة الخطابية تستقل بكونها لا تتكون من ملفوظات مفردة أو معزولة، وإنما من مجموعة من الملفوظات. كما أن تحليل الملفوظات في «الخطاب» يختلف عنه في التشكيلات/ التكوينات الخطابية، إذ يتم التركيز

7 يورغن، ماريان. فيليبس، لويز (2019). **تحليل الخطاب: النظرية والمنهج**، ترجمة: بوعناني شوقي، الطبعة الأولى، المنامة- البحرين. ص 36

8 ياجر، سيفريد، وماير فلورينتاين (2014) «**الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو**»، ضمن كتاب: مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: ووداك روث، وماير ميشيل، ترجمة: حسام أحمد فرج، وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى. ص ص 84- 85

9 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 109

10 نفسه، ص 110

على القواعد الناظمة لمجموعة من الملفوظات المبعثرة والموزعة ضمن ميدان وحقل خطابي، هذه القواعد ترتبط بمستويات الانتظام بين الموضوعات وأشكال التعبير عنها، وأنماط التصورات والاختيارات الفكرية، و«حينما نتمكن من إثبات منظومة تبعثر ما من هذا النوع داخل عدد معين من العبارات، وعندما نقف على شكل من أشكال الانتظام [..] بين الموضوعات، وأنواع التعبير والتصورات والاختيارات الفكرية، سوف نقول من باب الاصطلاح إننا أمام تشكيلة خطابية»[11].

يحدد فوكو الشروط التي تحدد وجود التشكيلة الخطابية، مميزا فيها بين شروط الانبثاق والظهور، وترتبط بكيفية انبثاق موضوعات في فضاءات زمانية ومكانية مختلفة حسب السياقات وأنماط الخطاب، ثم شروط التعيين والترتيب والتي تبين مراتب وحدود خطابات في علاقتها بخطابات أخرى، ثم شروط التمييز والفرز التي تتيح لأنماط خطابية الظهور في سياق تاريخي محدد، كما تبين خصائصها واختلافها أو تماثلها مع خطابات أخرى. وأخيرا شروط تبعثر وتوزع الموضوعات وأوجه التعبير وصيغه والمفاهيم والاختيارات الفكرية، تحدد هذه الشروط والقواعد الكيفية التي تتوزع بها تلك الخطابات ضمن علاقات التواجد والاحتفاظ، والتحوير والامحاء والاختفاء، وهو غير التبعثر الذي يلحق ملفوظات الخطاب بوصفها جملة من الملفوظات المتعالقة أو المستقلة[12].

كما قدم أربع مقولات أساسية لتحديد وتحليل التشكيلات الخطابية، و«من خلال بحث هذه المقولات في النصوص السابقة المتراكمة توصل إلى فهم التكوينات الخطابية على أنها نظم تبعثر وتوزيع»[13]. تتوازى هذه المقولات مع أربع لحظات في التحليل الأركيولوجي للتشكيلة الخطابية تسمح بأن يجعل من تشكل ملفوظات أرشيفا. ترتبط المقولة الأولى بـ«الأشياء» وتتعالق مع مستوى تحليل المرجع حيث تبنى وحدة الملفوظات المشكلة لموضوع ما باعتماد عمليات إعادة تشكيل ملفوظات مبعثرة في حقول خطابية متعددة؛ دينية وطبية وقانونية وسياسية، وغيرها. «والحاصل أننا لن نستطيع لا عن طريق الكلمات ولا عن طريق الأشياء تحديد تكوين خطابي، ولكن بعمل أركيولوجي يجمع وقائع خطابية من الأنحاء المختلفة التي يلفظ فيها بما يمكن جمعه تحت اسم [...]، وهو ما يطرح مسألة الهوية التلفظية»[14]، وهي موضوع المقولة الثانية. ترتبط هذه المقولة؛ أي «وجهات التلفظ» (enunciative modalities) بمستوى جهات التلفظ حيث لا يعد إنتاج خطابي تجليا لذات مفكرة عارفة متلفظة ببساطة، بل «على العكس مجموع حيث يمكن أن يتحدد تشتت الذات وعدم تواصلها مع نفسها (فوكو 1969: 74) ويقابل عدم تجانس الأشياء عدم تجانس الذات من

11 نفسه، ص 35

12 ينظر: بغورة، الزواوي (2000)، **مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو**، المجلس الأعلى للثقافة. ص ص 104- 105

13 Garrity, Z. (2010). «*Discourse analysis, Foucault and social work research*». Journal of Social Work, 10(2), 193-210. P 203

14 شارودو، باتريك. منغنو، دومينيك (2002/ 2008)، **معجم تحليل الخطاب**، ترجمة: المهيري، عبد القادر. وصمود، حمادي، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة- تونس، ص 59

حيث تصورها حزمة من الأصوات منثورة في عديد الأماكن المؤسساتية»[15]. أما المقولة الثالثة؛ أي «مقولة المفاهيم» فترتبط بمستوى شبكة المفاهيم أو الشبكة النظرية التي يستهدف التحليل الوقوف عند استمراريتها وانسجامها فيما بينها، والعلاقات القائمة بينها في الآن نفسه. تتحدد المقولة الرابعة في مفهوم «الاستراتيجية» (stratégie) بوصفها «أساليب مسطرة [...] للشروع في توظيف إمكانيات الخطاب واستثمارها»[16]، وترتبط بمستوى الإمكانات الاستراتيجية، فمن الممكن التعرف على تشكيلات خطابية انطلاقا من ملفوظات تدعم موضوعا مشتركا، وهو ما يشير إلى أن الخطابات تعتمد تفضيلات نظرية للتأكيد على بعض القضايا، لكن لا ينبغي أن يفهم من أن الاستراتيجيات التي تعتمدها خطابات ميادين محددة قد تقوم دائما على التناظر إذا كانت تنتمي إلى الحقل ذاته وتستعمل التفضيلات النظرية عينها، أو التعارض إذا كان العكس. «يشير هذا إلى أن الخطابات ليست بالضرورة مسيجة بحدود ومنغلقة على ذاتها، بل يمكن أن تتأسس على علاقات التبادل، ويمكن أن تشترك في أوجه التشابه مع خطابات أخرى، بل من الممكن أن تناول الموضوع نفسه بنوعين من الخطاب، بالتعبير عنه في مجالين مختلفين من الأشياء والمفاهيم ووجهات التلفظ»[17].

يستهدف التحليل المنجز وفق هذه المقولات، إذن، الأشياء التي يدور حولها الخطاب والتي تحضر في ثناياه كمراجع تحيل على موضوعات، والذوات المنتجة للخطاب باعتبارها مُشَكِّلة للخطاب ومُشَكَّلَة به، ثم المفاهيم التي تشكل منطقة جذب كل أشكال الخطابات والتي تظهر عبرها العلاقات. وأخيرا الاستراتيجيات الخطابية التي تحيل على الممارسة الخطابية. إن القواعد التي تتحدد من خلالها التشكيلة الخطابية، هي بالإضافة إلى ما تقدم، قواعد لتكون الموضوعات وجهات التلفظ والمفاهيم والاستراتيجيات، وكل تشكيلة من التشكيلات الخطابية تتميز عن غيرها في هذه المستويات، ومن شأن تطبيق هذه المقولات على أرشيف محدد أن يعين حدود التشكيلات الخطابية التي تكونه.

3.1. الميدان الخطابي والممارسة الخطابية ونسق التكوين

يرتبط مفهوم الخطاب ارتباطا وثيقا بمفهوم الميدان الخطابي (champ discursif) الذي يحدده فوكو بأنه ميدان «يتكون من مجموع المنطوقات الفعلية (المكتوبة أو المنطوقة) في تبعثرها كأحداث وفي اختلاف مستوياتها»[18]. إنه حسب منطوق النص، يتشكل من ملفوظات فعلية، وهنا يتفق مع الخطاب والتشكيلة الخطابية، لكنه في المقابل يختلف عن التشكيلة الخطابية من حيث الحجم؛ لأن ميدانه أرحب وأوسع من

15 نفسه، ، ص 60

16 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 89

17 Garrity, Z. (2010). «*Discourse analysis, Foucault and social work research*». Journal of Social Work, 10(2), 193-210. P 206

18 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 32

التشكيلة الخطابية، فقد يغطي حقلا معرفيا كاملا، أو جملة من الحقول المعرفية المرتبطة بعلاقات تحول وتجدد وتجاوز مشروطة بالتحقق التاريخي. إنه يحيل على جميع الأقوال/ الملفوظات والخطابات التي يحدها حقل معرفي واحد وأنتجت تاريخيا بالارتباط بهذا الحقل أو الحقول المعرفية المتحولة عنه.

تحيل الممارسة الخطابية (pratique discursive) بالمفهوم الفوكوي على» مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة دوما في الزمان والمكان، والتي حددت في فترة زمنية بعينها، وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي او لساني»[19]. كما أن «ما ندعوه بالممارسة الخطابية، ليس بالإمكان الخلط بينها وبين العملية المنطوقية [...] ولا بينها وبين نشاط العقل [...] أو بينها وبين مقدرة الشخص على الكلام، حينما يركب جملا نحوية، بل هي مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعينة والمحددة دوما في الزمان والمكان، والتي حددت في فترة زمانية بعينها، وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي أو لساني معطى، شروط ممارسة الوظيفة المنطوقية»[20].

ليست الممارسة الخطابية، إذن، مرادفة لعملية التلفظ أو للفعل التواصلي، كما أنها ليست نشاطا معرفيا عقليا ولا قدرة أو كفاءة تواصلية. كما أنها لا تتسع لتشمل كل أشكال الممارسات الحافة بعمليات التلفظ، إنها ببساطة قواعد تاريخية سياقية موضوعية تعنى بشروط ممارسة الوظيفة التلفظية.

يتحدد نسق التكوين (système de formation) في تلك «المجموعة المعقدة من العلاقات والروابط التي تقوم بتكوين قاعدة للخطاب. إنها هي التي تقرر ما يجب أن يرتبط بعلاقة ما داخل ممارسة خطابية معينة، كي تستطيع هذه الأخيرة أن تشير إلى هذا الموضوع أو ذاك [...] أو تنظم هذه الاستراتيجية أو تلك»[21]. إنه بمثابة قواعد تاريخية للخطاب المخصوص تحدد ما يمكن قوله ووفق أية طريقة.

4.1. الخطاب والمعرفة

يقترن الخطاب في المراحل الأولى من فكر فوكو والمعروفة بالمرحلة الأركيولوجية بالمعرفة اقترانا وثيقا، ففي هذه المرحلة بالذات يمكن أن نقول إن المعرفة تتخذ مفهوما خطابيا، كما أن الخطاب يتخذ صبغة معرفية. إن الأركيولوجيا بوصفها شكلا وصفيا للأرشيف الواقعي في مرحلة تاريخية محددة لا تحاول وصف العلم أو نظرية العلم في بناها النوعية، لأن ميدانها هو المعرفة. اهتم فوكو أكثر بالعلوم الإنسانية باعتبارها ممارسات خطابية، غير محددة المعالم أو بصيغة أدق بإبستيمية العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية كالطب والطبيعيات والممارسات الخطابية للمعرفة، بدل إبيستمولوجيا العلوم الصلبة والنظريات العلمية.

19 نفسه، ص 113

20 نفسه، ص 111

21 نفسه، ص ص 71- 72

أسس فوكو نظرية في المعرفة قائمة على الخطابات منطلقا من أن المعرفة «هي مجموع الممارسات الخطابية الخاصة»[22]، وكل أنشطة الأنسان النظرية و«أنواع المحتويات التي تشكل أيا من أشكال الوعي الإنساني، أو بمعنى آخر، هي كافة أنواع المعاني التي يعن للبشر استخدامها لتفسير بيئتهم الخاصة وتشكيلها. يلجأ البشر إلى اشتقاق هذه المعرفة من البيئات الخطابية التي يولدون فيها، والتي يعيشون في نسيجها طوال فترات حيواتهم بالكامل ومن ثم، فإن المعرفة شرطية بمعنى أن مدى صلاحيتها أمر يعتمد على الحقبة التاريخية التي يحيا فيها البشر، والحدود والظروف الجغرافية التي يعيشون فيها، والعلاقات فيما بين الطبقات، وغير ذلك من العوامل»[23]. وتقابل الأنشطة الفعلية أو العملية في العالم والطبيعة والمجتمع، والعلم والنظريات العلمية في الإبستمولوجيا وتاريخ العلوم.

يحدد فوكو المعرفة بوصفها ممارسة خطابية، ويقرر بأن «لا وجود لمعرفة بدون ممارسة خطابية محددة، فكل ممارسة خطابية تتحدد بالمعرفة التي تكونها [..] وبدلا من أن تجوب الأركيولوجيا محور الوعي- المعرفة- العلم [...] ترتاد محور الممارسة الخطابية المعرفة- العلم»[24]. ووظيفة الأركيولوجيا، بوصفها شكلا من التأريخ لأنماط الفكر في حقبة تاريخية محددة، «ليست وصف العلم في بنيته النوعية، بل وصف ميدان مخالف هو المعرفة»[25]؛ وذلك بـ«دراسة شروط إمكان قيام المعارف من الناحية التاريخية، وبحسب النظام المعرفي الذي يظهر المعارف والعلوم والفلسفات»[26].

اهتم فوكو بدراسة ابستيمية المعرفة بصفتها «نوعا من النظام الذي يتحكم في المعارف التجريبية في التاريخ. وهذا النظام لا يحيل المعرفة إلى ذات متعالية أو تأسيسية، وإنما على ممارسات خطابية في التاريخ. وتدرس مجموع العلاقات التي بإمكانها أن توجد في فترة زمنية معينة بين الممارسات الخطابية الخاصة، أو المعرفية. إنها نظام أو مبدأ يحكم المعارف في فترة تاريخية محددة، استعمله فوكو لوصف مراحل الفكر الأوربي الحديث الذي قسمه إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة النهضة التي سادت فيها إبستيمية التشابه، ومرحلة العصر الكلاسيكي التي سادت فيها إبستيمية التمثيل أو التصوير، والمرحلة المعاصرة حيث سادت إبستيمية الإنسان»[27]. أي إن الاهتمام انصب على المشكلات الاجتماعية والسياسية للمعرفة، وكيفيات تشكل المعارف في التاريخ الواقعي، وعلاقاتها بالسطلة المؤسسية والمجتمعية وبالذوات المشكلة خطابيا.

22 بغورة، الزواوي (2000)، **مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو**، المجلس الأعلى للثقافة. ص 188- 193

23 ياجر، سيفريد، وماير فلورينتاين (2014) «**الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو**»، ضمن كتاب: مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: ووداك روث، وماير ميشيل، ترجمة: حسام أحمد فرج، وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى. ص 80

24 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 175

25 نفسه، ص 186

26 بغورة، الزواوي (2000)، **مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو**، المجلس الأعلى للثقافة. ص 172

27 بغورة، الزواوي (2015)، **الخطاب؛ بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشيل فوكو- دراسة ومعجم**، مكتبة لبنان ناشرون/ صائغ، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى. ص 382

إن تركيز فوكو على الإبستيمية في العلوم الإنسانية والتجريبية يخرجه من ادعاءات الحقيقة التي تدعيها العلوم الصلبة؛ الرياضيات والمنطق بشكل خاص، ويركز عمله على ما سماه بسياسة الحقيقة؛ أي تلك الممارسات والمبادئ والأسس الاجتماعية والتاريخية المؤسسة لكل ما يعتبر «حقيقة»، أو كما يقول: «إن مشكلتي هي سياسة الحقيقة [..] فالمسألة لا تقتصر على الفصل داخل الخطاب بين ما هو علمي وحقيقي وبين ما هو غير ذلك، بل أن نلاحظ كيف يتم على مستوى التاريخ، إنتاج انعكاسات للحقيقة داخل الخطاب، لا تكون في حد ذاتها لا صحيحة ولا خاطئة»[28]. ويضيف بأن «كل محاولة للقيام بوصف دقيق أكثر للعلائق الموجودة بين البنية الإبستمولوجية للاقتصاد ووظيفته الإيديولوجية لا بد لها من أن تمر عبر تحليل التشكيلة الخطابية التي أفسحت المجال لظهوره ولمجموع الموضوعات والمفاهيم والاختبارات النظرية التي كان عليه أن ينشئها ويضفي عليها سمة النسق والمنظومة، وأن تبين كيف أن الممارسة الخطابية التي أفسحت المجال هي وممارسات أخرى ذات طابع خطابي، لظهور وضعية من ذلك النوع هي بدورها ذات طابع سياسي واقتصادي»[29].

تبدو المعرفة في منظور فوكو مقصدا أسمى لمشروع التحليل الأركيولوجي للخطاب، وهي معرفة تتكون انطلاقا من ملفوظات وخطابات تتحدد بسياقاتها التاريخية وظروفها الاجتماعية وبعلاقاتها بالسلطة والذوات. وتسهم عبر الخطابات في إنتاج الذوات التي هي ما نحن عليه، والأشياء التي تستطيع أن نعرف عنها أمورا بما في ذلك أنفسنا بما هي ذوات. وهنا يرتبط فوكو بفرضية البنائية الاجتماعية القائلة إن المعرفة ليست مجرد انعكاس للواقع، بقدر ما هي بناء خطابي مسند بأنساق معرفية تحدد الحقيقة مما ليس كذلك.

5.1. السلطة والخطاب

يشغل مفهوم «السلطة» (pouvoir)، إلى جانب مفهوم المعرفة، موقعا مهما في فكر فوكو خاصة في المرحلة التي وسمت بالجينالوجية والمرتبطة بمؤلفات كـ«جينالوجيا المعرفة» و«إدارة المعرفة؛ تاريخ الجنسانية» (l'Histoire de la Sexualité). ويستمد هذا المفهوم أهميته ومركزيته في هذه المرحلة في اتجاه فوكو إلى دراسة أشكال السلطة في المجتمعات الغربية، وخاصة بعد أحداث مايو 1968 التي فرضت عليه الانخراط في الكفاح الاجتماعي تنظيرا وممارسة. يقدم فوكو مفهوما «للسلطة» يتجاوز المفاهيم التقليدية التي تحصرها عادة في مجموع المؤسسات والأجهزة العاملة في كنف الدولة من غير أن ينفي، بطبيعة الحال، أن تشكل الدولة بأجهزتها ومؤسساتها معطى أساسيا في مفهوم السلطة. يقول «كلمة «سلطة» هذه قد تسبب الكثير من سوء الفهم، سوء فهم يتناول هوية السلطة وشكلها ووحدتها. بكلمة سلطة، لا أعني «السلطة»؛ أي مجموع المؤسسات والأجهزة التي تضمن خضوع المواطنين في إطار دولة ما.

28 فوكو، ميشال (1980)، «**الحقيقة والسلطة، مقابلة مع فونتانا**»، مجلة الفكر العربي المعاصر- عدد 1، ص 136

29 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 178

كذلك لا أعني بكلمة سلطة نمطا من الإخضاع الذي، هو على العكس من العنف، إنما يتخذ شكل قاعدة. وأخيرا لا أعني بكلمة سلطة نظاما عاما من جهة الهيمنة، يمارسه عنصر أو مجموعة على عنصر آخر، أو مجموعة أخرى، تخترف مفاعله الجسم الاجتماعي كله عبر انحرافات متتالية: فالتحليل، من منظور السلطة لا ينفي أن نفترض أن سيادة الدولة أو شكل القانون أو الوحدة الكلية، لهيمنة ما، هي معطيات أولية. إنما بالأحرى أشكال السلطة النهائية. بكلمة سلطة، يبدو لي أنه يجب أن يفهم قبل كل شيء تعدد موازين القوى المحايثة للمجال الذي تمارس فيه، والمكونة لتنظيمها، واللعبة التي تحول هذه الموازين أن تعززها، وتقلبها عن طريق مجابهات ونزاعات متواصلة، وكلمة سلطة تعني أيضا الدعم الذي تلقاه موازين القوى هذه في بعضها بعض، بحيث تشكل سلسلة أو نظاما أو بالعكس، التفاوتات أو التناقضات التي تعزل بعضها عن البعض الآخر، أخيرا تعني كلمة سلطة الاستراتيجيات التي بواسطتها تفعل موازين القوى فعلها، والتي تتجسد خطتها العامة أو تبلورها المؤسسي في أجهزة الدولة، وصياغة للقانون، والهيمنات الاجتماعية»[30].

إن السلطة بهذا المفهوم حاضرة في كل مكان، وحضورها المحايث والشامل فوق الجسد الاجتماعي ناتج عن قدرتها على إنتاج ذاتها في كل لحظة، إنها ممارسة وليست ملكية يحوزها شخص واحد أو جهاز أو مؤسسة واحدة، كما أنها ليست امتيازا طبقيا، «إنها الأثر الإجمالي لمواقعها الاستراتيجية»[31]، وهي منظورة لا ملموسة. ويجب فهمها على أنها شبكة من القوى المتفاعلة التي تعتمد على الأهداف، والعلاقات، والتنظيم الذاتي، لا على أنها ظاهرة فردية، أحادية الاتجاه، ولا يُنظر إليها بالضرورة على أنها استراتيجية يستخدمها بعض الأشخاص بوعي على الآخرين[32]. كما يُنظر إلى الحياة الاجتماعية على أنها شبكة من علاقات القوة المتغيرة التي تتأثر بالسيرورات الدقيقة بدلاً من التسلط البدني الغاشم.

إن السلطة هي عملية تعمل ضمن صراعات ومواجهات مستمرة تتغير أو تتعزز ضمن علاقات القوة. وهذا يعني أن السلطة توصف بأنها عملية علائقية تتجسد في المواقف الخاصة بالسياق، ويمكن التعرف عليها جزئيًا من خلال آثارها الإيديولوجية على حياة الناس. إنها تتجلى في الدعم الذي تجده علاقات القوة أو التوتر في بعضها البعض، وهو ما يشكل شبكة أو نظاما للتأثيرات التفاعلية. كما تُعرف من الاستراتيجيات والممارسات التي تتدخل فيها علاقات القوة ومن خلالها، وهي ليست إيديولوجية على الرغم من أنه من الممكن القول إن الإيديولوجية هي إحدى الاستراتيجيات الملاحظة في حالات الهيمنة الفردية في علاقات السلطة. لكنها بالمقابل ليست مجموعة من المؤسسات، أو الهياكل، أو مجموعة من الآليات التي تضمن تبعية المواطنين، أو طريقة للإخضاع تعمل بالقواعد بدلاً من العنف. أو قوة جسدية، أو نظامًا عامًا للهيمنة من قبل

30 فوكو، ميشيل (1990)، **إرادة المعرفة**، ترجمة: أبي صالح، جورج، مركز الإنماء القومي، بيروت. ص 101

31 نفسه، ص 102

32 ينظر: Revel, J. (2002). *Le vocabulaire de Foucault*. Paris: Ellipses. P 56

مجموعة على مجموعة أخرى. أو ضبطًا سلبيًا للحقيقة أو لحقوق الأفراد أو المجموعات كما هو مفهوم في الرأي القانوني. وبدلاً من ذلك، فإن السلطة مثمرة للحقيقة والحقوق وتصورات الأفراد، من خلال العمليات، أو الممارسات الخطابية للعلوم الإنسانية وغيرها من الخطابات مثل خطابات العلوم الاجتماعية والإنسانية والطب والقانون والتعليم، وتعمل من خلال الاستراتيجيات والممارسات الموجهة بشكل لا واع. ولا توجد نقطة مركزية تنبعث منها «لأن لها وجودا استراتيجيا معقدا تختلف مظاهره باختلاف السياقات المحددة. وهو ما يجعل تحليل هذا الوجود الاستراتيجي محصورا ومحدودا في الآثار الجزئية/ المحلية فقط»[33]. ولكل هذه السمات عبر فوكو عن هذه الشكل من السلكة بـ«السلطة الحيوية» (piopouvoir) أو «السياسة الحيوية» (biopolitique).

ليست السلطة كيانًا محدودًا يتم الاستيلاء عليه أو مشاركته. إنها ليست شيئًا يمكن لشخص ما التشبث به أو التخلص منه، إذ يتم تجسيدها أو تنفيذها وتفعليها من خلال التفاعل بين العلاقات ومن خلال تحولات للقوى في سياق محدد. وليست صراعا مؤسسيا بين السلطات والجماعات المستهدفة. ولا تشتغل بمنطق الاتجاه من الأعلى للأسفل. إنها تعمل في البنيات البيروقراطية وفي الأسر والمجموعات والدول والمؤسسات والخطابات والعلاقات.

لا توجد السلطة بمعزل عن العلاقات الاقتصادية أو العلاقات السياسية أو علاقات المعرفة أو العلاقات الجنسية، إنها متأصلة فيها، ولها دور إنتاجي مباشر في هذه العلاقات. كما أن علاقات السلطة ليست مقصودة؛ قد تكون هناك توجيهات إلى خطوط القوة، ولكن لا يتم التخطيط للاستراتيجيات بالضرورة لقمع أشخاص أو مجموعات معينة. إذا كانت علاقات السلطة مفهومة، فهذا ليس لأنها مثال على شيء يمكن شرحه أو توقعه، ولكن لأن لديه أهدافا ومرامي مشتركة. نادراً ما يمكن التعرف على هذه الأهداف والمرامي فقط في علاقتها بالسلطة. لكل ما سبق، لا يمكن القول إن أن علاقات السلطة تنجم بالضرورة عن اختيار أو قرار شخص أو مجموعة من الأشخاص. في الواقع، «يحاجج فوكو بأن السلطة الحديثة ليست نوعًا من المؤامرة التي تم إنشاؤها فيما يتعلق بأهداف محددة للسيطرة. ويسمي تصوره للسلطة استراتيجية بدون استراتيجي؛ لأنه على الرغم من أنه يوفر توجيهًا لترتيب السلطة/المعرفة، إلا أنه لا يمكن القول إن أي مجموعة من المعرفة المنظمة قد نشأت عن الاستراتيجية»[34].

33 Powers, P. (2007). «*The philosophical foundations of Foucaultian discourse analysis*». Critical approaches to discourse analysis across disciplines, 1(2), 18-34. P 29

34 Ibid. P 32.

1.5.1. السلطة بوصفها ممارسة غير خطابية

ميز فوكو ضمن مفهوم السطلة بين نمطين اثنين؛ السطلة بوصفها ممارسة خطابية، والسلطة بوصفها ممارسة غير خطابية وكلاهما تشكلان أساسا لتحليل الخطاب بالمفهوم الفوكوي، وهذا التمييز هو أساس الاختلاف بين نظرية الخطاب عند فوكو ونظيرتها لدى لاكلو وموف اللذان لا يقيمان أي تمييز بين الممارسات الخطابية وغير الخطابية في دراسة أشكال والسلطة والهيمنة كما رأينا ذلك في المدخل. تغطي السلطة بالمفهوم الخطابي وغير الخطابي الأشكال الثلاثة للسلطة التي كانت موضوع درس من لدن فوكو؛ أقصد السلطة الانضباطية (pouvoir discilinaire) المتمركزة حول الجسد، والسلطة الحيوية (piopouvoir) أو السياسة الحيوية (biopolitique) المهتمة بحياة الجمهور، والسلطة الرعوية[35] المعنية بالأفراد وتعتمد على الحوكمة / الحاكمية (gouvernementalite).

حدد فوكو الممارسات غير الخطابية بكونها «حقلا مؤسساتيا ومجموعة أحداث وممارسات وقرارات سياسية وتسلسل سياسات اقتصادية، حيث تظهر تغيرات ديموغرافية وتقنيات مساعدة واحتياجات إلى اليد العاملة ...»[36]. كما حدد مختلف مظاهر السلطة المرتبطة بها بدءا من التعذيب المتعلق بالممارسات التقليدية إلى العقاب والضبط، المتمركز حول الجسد، بوصفهما ممارستين حديثتين ومعاصرتين لممارسة السلطة، والأشكال التي يتخذها الضبط في الحياة الاجتماعية من خلال آليات التقسيم التي تعتمد تقسيم الفرد في المكان، ثم آلية «التربيع» (quadrillage) المعنية بتوزيع الأفراد على مواقع يشغلونها وتثبيتهم فيها، ثم قواعد المواقع الوظيفية (Emplacements Fonctionnels) المستعملة بشكل خاص في المؤسسات الضبطية والمستشفيات والثكنات العسكرية وغيرها. وقواعد الرقابة على النشاط (Controle de l activite) و«الرقابة التراتبية (surveillance hierarchique) وقواعد «العقوبة الضابطة» (sanction Normalisatrice) الشبيهة بالواجب والتي تحمل طابع العقوبة والمكافأة، وأخيرا الامتحان (Examen) الذي يتغلغل في مختلف التقنيات الضبطية وفق مراسيم وطقوس تعكس نظام الرؤية في ممارسة السلطة[37].

2.5.1. السلطة بوصفها ممارسة خطابية

حدد فوكو الخطاب في علاقته بالسلطة حين اعتبر الخطابات «عناصر أو كتل تكتيكية في حقل علاقات القوى، قد تكون هنالك أشكال متباينة منها، وحتى متناقضة، داخل الاستراتيجية الواحدة نفسها، وبالعكس

35 «تنبني فكرة السلطة الرعوية على مجاز بموجبه يتم اعتبار الحاكم راعيا، ويتم اعتبار المحكومين قطيعا. والعلاقة بين الطرفين تقتضي من جهة الحاكم، أن يرعى على سبيل الوجوب [...] مصالح قطيعه وإشباع حاجاته الأساسية، لا بوجه عام كقطيع وكفى، بل بوجه خاص كأفراد». حيمر، عبد السلام، **في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر. ص 311

36 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 151

37 ينظر: بغورة، الزواوي (2000)، **مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو**، المجلس الأعلى للثقافة. ص 225

يمكن أن تنتقل هذه الخطابات بين استراتيجيات متناقضة، دون أن يتبدل شكلها»[38] كما رسم في بداية «نظام الخطاب» صورة لتخوف الذات أو الرغبة أو المؤسسة أو السلطة من الخطاب انطلاقا مما يشكله «في حقيقته المادية كشيء منطوق أو مكتوب، التخوف تجاه هذا الوجود العابر المتجه إلى الامحاء بدون شك، لكن خلال مدة لا نتحكم نحن فيها، التخوف من أن نحس بأن تحت هذه الحركة، التي هي مع ذلك حركة يومية ومادية، سلطا أو أخطارا لا نتصورها جيدا، التخوف من توقع وجود صراعات وانتصارات وجروح وسيطرات وعبوديات عبر الكثير من الكلمات، التي قلص استعمالها، منذ زمن طويل، من فضاضتها»[39]. وهذه السلطة التي يحوزها الخطاب هي مصدر قوته وفي الآن نفسه، مصدر الخوف الشديد منه لذلك، فإن إنتاج الخطاب في كل مجتمع، كما يقول فوكو، «هو في نفس الوقت إنتاج مراقب ومنتقى ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطاته، ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة [...] ورغم أن الخطاب في ظاهره بسيط، لكن أشكال المنع التي تلحقه، تكشف باكرا وبسرعة عن ارتباطه بالرغبة وبالسلطة»[40].

يقيم المجتمع بمؤسساته وبناه وذواته إجراءات وآليات لمراقبة الخطاب والحد من سلطته وخطره وما يثيره من مخاوف، وهي إجراءات يصنفها فوكو إلى (أ) «إجراءات خارجية تتشكل من عمليات المنع والقسمة والرفض وإرادة الحقيقة/ المعرفة ووظيفتها مراقبة الخطاب من الخارج»[41]. و(ب) «إجراءات داخلية تخص الخطاب ذاته، وتمارس مراقبتها على شكل مبادئ للتصنيف والتنظيم والتوزيع، كما لو أن الأمر يتعلق هذه المرة بالتحكم في بعد آخر من أبعاد الخطاب: بعد الحدث والصدفة»[42]. ومن ضمن هذه الاستراتيجيات؛ استراتيجية التعليق، وتنصب على النصوص الثقافية التي تمتلكها الثقافات المختلفة وتقوم بإعادة إنتاجها عن طريق قراءتها وتأويلها وتصنيفها وفق معايير الثقافة ذاته وتقديم بعضها وتأخير البعض الآخر[43]. ثم استراتيجية «المؤلف» «لا من حيث هو الفرد المتحدث الذي نطق أو كتب نصا، بل المؤلف كمبدأ تجميع للخطاب، كوحدة وأصل لدلالات الخطابات، وكبؤرة لتناسقها»[44] باعتبارها استراتيجية تحد من سلطة الخطاب بواسطة لعبة الهوية التي تتخذ شكل الفردية وشكل الأنا. وثالثا استراتيجية «الفرع المعرفي» التي تعمل على الحد من سلطة الخطاب وحصره، وذلك بفرضه مجموعة من المعايير، على انتماء القضايا إلى حقله، أو إبعادها عن مجاله، فهو يعكس بصورة من الصور إرادة الحقيقة. فلكي تنتمي قضية ما إلى

38 فوكو، ميشيل (1990)، **إرادة المعرفة**، ترجمة: أبي صالح، جورج، مركز الإنماء القومي، بيروت. ص 109

39 فوكو، ميشيل (1984)، **نظام الخطاب**، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت- لبنان. ص 7

40 نفسه، ص ص 8- 9

41 نفسه، ص 9 وما بعدها.

42 نفسه، ص 11

43 نفسه، ص ص 12- 13

44 نفسه، ص 14

فرع عرفي، فإنه: «يتعين عليها أن تسجل نفسها ضمن أفق نظري معين [...] وأن تستجيب لمتطلبات معقدة وثقيلة حتى تستطيع أن تنتمي إلى مجموع فرع معرفي ما، يتعين عليها أن تكون- وكما يقول كانغيليم- واقعة (ضمن الحقيقي)، قبل أن يستطيع القول بأنها حقيقة أو خاطئة [...] إن الفرع المعرفي (la discipline)، مبدأ لمراقبة الخطاب، فهو يعين بواسطة لعبة هوية تأخذ شكل عملية بعث دائم للقواعد»[45].

تختلف (ج) «إجراءات الاستخدام والتوظيف»، وهي النوع الثالث من الإجراءات الرامية إلى مواجهة سلطة الخطاب، عن نظيرتيها السابقتين، «لأنها لا تبحث في آليات التحكم في السلطة التي تحملها الخطابات، ولا بالحد من صُدَفِ ظهورها، بل يتحدد بتحديد شروط استخدامها، وبفرض عدد من القواعد على الأفراد الذين يتلقونها، ومن ثم بعدم السماح لكل الناس بالدخول إليها. في هذا المرة يتعلق الأمر بالتقليل من الذوات المتكلمة، لن يدخل أحد في نظام الخطاب إذا لم يكن يستجيب لبعض المتطلبات، أو إذا لم يكن مؤهلا للقيام بذلك منذ البداية. وبدقة أكبر ليست كل مناطق الخطاب مفتوحة بنفس الدرجة، وقابلة للاختراق بنفس الدرجة؛ فبعضها محروس وممنوع علانية في حين أن البعض الآخر يبدو مفتوحا تقريبا أمام كل الرياح وموضوعا رهن إشارة كل ذات متكلمة بدون حصر»[46].

تشكل مجتمعات الخطاب أو جماعات الخطاب (societies de discours) إحدى إجراءات الاستخدام والتوظيف، وتتحدد «وظيفتها في الحفاظ على الخطابات أو إنتاجها، لكنها تفعل ذلك لكي تجعل هذه الخطابات تتداول في مجال مغلق، ولئلا يتم توزيعها إلا وفق قواعد مضبوطة وبدون أن يؤدي هذا التوزيع إلى تجريد أصحابها منها»[47]. وينظر بالمثل إلى المذاهب (doctrines) (الدينية والسياسية والفلسفية) على أنها استراتيجيات توظيف واستخدام، وهي على النقيض من «مجتمعات الخطاب»، «يميل المذهب إلى الانتشار، وبواسطة الاستعمال المشترك لنفس المجموعة الواحدة من الخطابات يعرف عدد الأفراد- مهما تخيلنا عددهم- انتماءهم التبادل. الشرط الوحيد المطلوب، في الظاهر، هو الاعتراف بنفس الحقائق وقبول قاعد معينة، مربة إلى حد- للتوافق مع الخطابات المصادق عليها [...] وستنصب مراقبة الخطاب في هذا الإجراء على المنطوق والذات المتكلمة ويسائل أحدهما من خلال الآخر»[48]. كما أن «طقوس الكلام» المصاحبة للخطاب تمارس عليه إكراها، بتحديدها للمواصفات والأدوار والسلوكات التي يلزم أن تتصف بها الذوات المتكلمة وهي تستعمل الخطابات وتتداوله، فالخطابات الدينية والقضائية والطبية وإلى حد ما السياسية لا تنفصل أبدا عن استعمال طقوس تحدد للذوات المتكلمة صفات خاصة وأدوارا ملائمة في الوقت نفسه[49].

45 نفسه، ص ص 18- 19

46 نفسه، ص ص 19- 20

47 نفسه، ص 21

48 نفسه، ص 23

49 ينظر: نفسه، ص 21

ثم أخيرا نجد أن الإجراء الأخير ضمن إجراءات التوظيف والاستخدام يتمثل في التملك الاجتماعي للخطابات (L'Appropriation Sociale des discours)، الذي يمر عبر نشاط التربية باعتباره النشاط الذي يمتلك «الحق قانونيا في أن يكون الأداة التي يمكن بفضلها لكل فرد أن ينخرط، بشكل مشروع، في أي نوع من أنواع الخطاب، رغم أن تتبع في توزيعها، وفيما تسمح بها، وفيما تمنعه، الخطوط المطبوعة بالتباينات والتعارضات والصراعات الاجتماعية. إن كل منظومة تربوية عبارة عن طريقة سياسية للإبقاء على تملك الخطابات أو لتعديل هذا التملك، بجانب ما تحمله هذه الخطابات من معارف وسلط»[50].

3.5.1. المقاومة وتحرير الخطاب

طور فوكو في أعماله الجينالوجية نظرية تركز على السلطة بدل الفواعل والأبنية بوصفها مقولات أولية. وكما رأينا، تشترك السلطة مع الخطاب في كونها لا ترجع إلى فاعلين محددين مثل الأفراد أو الدولة أو جماعات الضغط ذات المصالح الخاصة، لكنها بدلا من ذلك تتوزع عبر ممارسات اجتماعية متنوعة، إنها ليست قمعية بشكل حتمي، لكنها منتجة، فهي التي تشكل الخطاب والمعرفة والذوات، وهي مسؤولة عن إنتاج عالمنا الاجتماعي والطرائق المخصوصة التي تَشَكَّل بها والتي تتيح لنا تجربته والتكلم عليه بتثبيته وإضفاء صفة الطبيعية عليه واستبعاد طرائق أخرى بديلة من الوجود والكلام، وبالتالي تؤدي دور المنتج والـمُقَيِّد. وتلعب الخطابات دورا مركزيا في هذا الفعل بممارسة سلطاتها في أي مجتمع نتيجة كونها تؤسس طرائق الحديث والتفكير والفعل وتنظمها. وأركز على «الخطاب» ليس بوصفة حدثا أو ممارسة تواصلية محدودة، فهذا النوع من الخطاب يصعب، إن لم نقل يستحيل، إدراك آثاره السلطوية والتدليل عليها؛ لأنه يحظى بالحد الأدنى منها. وإنما بوصفه ممارسة ممتدة عبر الزمان والمكان ولها محتويات ورموز واستراتيجيات وتفضيلات نظرية متكررة تدعم ظهور المعرفة وتعززها وتستمد سلطتها من مراكمة التشكيلات الخطابية.

يربط فوكو السلطة بالمعرفة بالخطاب بالمقاومة، فالخطاب بما يسنده من معرفة وسلطة ينتج ويعيد إنتاج السلطة، ولكنه يمكن أيضًا أن يقوضها ويقاومها. لذلك بدل الحديث عن سلطة الخطاب، كما رأينا في الفقرات السابقة، يمكن الحديث كذلك عن تحرير الخطاب من سلطته بوصفها استراتيجية من استراتيجيات مقاومة السلطة كممارسة خطابية. فكما يقول فوكو: «يجب ألا نتخيل عالما للخطاب، مقسما بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض، أو بين الخطاب المسيطر والخطاب المسيطر عليه، بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة -الخطاب ينقل السلطة وينتجها، يقويها، ولكنه يلغمها، يفجرها، يجعلها هزيلة ويسمح بإلغائها-[...] أي ضمن استراتيجيات/ أساليب مجابهة

50 نفسه، ص ص 23- 24

ما تسعى لحرمان الخصم من وسائله القتالية وإرغامه على الاستسلام، والمقصود حينئذ هو الوسائل المعدة لإحراز النصر»[51].

يشكل مبدأ القلب (renversement) إحدى استراتيجيات تحرير الخطاب، ويعنى التخلي عن الإجراءات الداخلية لسلطة الخطاب؛ أعني إجراء التعليق والمؤلف والفرع المعرفي، والنظر في الخطاب بوصفه حدثا. ويتحدد الإجراء الثاني في اعتماد مبدأ الانفصال أو عدم الاتصال (discontinuity) وذلك بدراسة الخطابات كممارسات غير متصلة أي متقطعة، واستبعاد مبدأ الاتصال والاستمرارية الذي ثَبَّته التاريخ التقليدي أو التاريخ الكلي. أما مبدأ الخصوصية (specificity) فيقوم على تحرير الخطاب بعدم إدراجه في دلالات ومعان مسبقة، أو إدخاله في لعبة التأويلات اللامتناهية، والنظر إليه كحدث متميز وكممارسة خاصة. ويأتي مبدأ الخارجية (exteriority) لدراسة الخطاب من حيث الظاهر دون البحث في المعنى الخفي أو الدلالة الباطنية، أي دراسة ما يظهر من الأحداث وما يرسم لها من حدود[52].

6.1. الخطاب والذات

يرجع الفضل إلى ميشيل فوكو في تمكين تحليل الخطاب من نقطة انطلاق لفهم الذات. وتتمثل رؤيته في أن الذوات تنشأ في الخطابات، ورغم ما أخذ على فوكو في هذا الشأن، وخاصة اتهامه بإلغاء الفاعلية الذاتية لصالح هيمنة وحتمية الخطابات، إلا إنه قد قدم منظورا متطورا لكيفية بناء الفاعل في البيئتين الاجتماعية والتاريخية اللتان تحتضنانه من منظور تعاقبي وتزامني. وكما أشرنا إلى ذلك سابقا، يستمد الخطاب سلطته من تنظيم مجال التلفظ؛ إذ يسمح ببعض الملفوظات وطرق واستراتيجيات التلفظ بها، وفي المقابل، وعلى نحو متزامن، يقمع ملفوظات أخرى ويهمشها، وتأسيسا على التدفق المعرفي لهذا الخطاب بمرور الزمن، تصير هذه الخطابات بمثابة المحدد للطريقة التي يترجم بها المجتمع واقعه وينظمه ويدبر انطلاقا من ذلك أشكالا من الممارسات الخطابية وغير الخطابية.

تُشَكِّل، انطلاقا من ذلك، الخطاباتُ الوعيَ الفرديَّ والجمعيَّ، وتبعا الفاعِلينَ الفرديينَ والجمعيينَ، وما دام الخطاب محددا للوعي والوعيُ محددً للفعل، فإن النتيجة الحتمية أن الخطابات تحدد الفعل، والفعل هو صانع الواقع المادي، والمحصلة النهائية أن الخطابات طرق توجيهية للفرد والجماعة نحو خلق الواقع وتشكيله. أي إن الخطابات هي التي تشكل الواقع عبر الذوات التي تتقمص هنا دورا سلبيا. و«انطلاقا من وجهة النظر النظرية حول الخطاب، نخلص إلى أن الفاعل الفرد ليس هو من يصنع الخطابات، إنما -على

51 فوكو، ميشيل (1990)، **إرادة المعرفة**، ترجمة: أبي صالح، جورج، مركز الإنماء القومي، بيروت. ص 102، 108- 109

52 ينظر: بغورة، الزواوي (2015)، **الخطاب؛ بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشيل فوكو- دراسة ومعجم**، مكتبة لبنان ناشرون/ صائغ، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى. ص ص 128- 129

النقيض من هذا- الخطابات هي التي تصنعه [...] وعلى هذا، فإن الفاعل الفرد يصبح محط الاهتمام ليس بوصفه فاعلا، وإنما باعتباره أحد نواتج الخطابات»[53].

كانت فكرة فوكو هي إنكار سيادة الذات في محيطها، واستبدالها بفكرة الذات كوظيفة للخطاب، وهي فكرة يبدو من خلالها أن فوكو يفرغ الذات من أي شكل من أشكال الفاعلية. ورغم أن فوكو عندما تحدث عن الذات وفق هذا المنظور، فإنما كان مهتما بـ«الشروط التي بموجبها تمارس الممارسة الخطابية، والتي بموجبها تؤدي هذه الممارسة إلى ملفوظات جديدة جزئيًا أو كليًا، والتي يمكن تعديلها وفقًا لها [...] ولا يجب أن تُفهم على أنها مجموعة من التحديدات المفروضة من الخارج على فكر الأفراد، أو تسكنها من الداخل»[54]. يدل هذا على أن قصد فوكو لم يكن الحد من قدرة الذات على التصرف ضمن التكوينات الخطابية وغير الخطابية، ولكن لتسليط الضوء على كيفية بناء المعارف والتفضيلات النظرية والاستراتيجيات والمفاهيم وإرادة المعرفة/ الحقيقة، مع الاعتراف بالمعرفة الخطابية كممارسة اجتماعية لتشكيل موضوع ما، وبدلاً من تحديد الأفراد وتعريفهم، فإن أركيولوجيا التكوينات الخطابية تهدف إلى إظهار تنوع وتعدد المواقف والوظائف التي يمكن أن يتولاها الأشخاص في وقت واحد، وبالتالي لم يكن من المفترض أن يُفهم الوصف الأركيولوجي للتشكيلات الخطابية على أنها مجموعة من القيود التي تعمل على متكلم خالٍ من الفاعلية على الكلام والفعل.

ترفض مقاربات تحليل الخطاب منظور فوكو حول الذات، على الرغم من كونه منظورا اهتم بقواعد تكوين الخطاب أكثر من الذات نفسها، و«بعيدًا عن اعتبار الخطاب بنية حتمية تقضي على الفاعلية وتؤدي إلى موت الذات، والتفكير في الخطاب كتكنولوجيا منتجة للممارسة الاجتماعية، والتي تُخضع الناس لأشكال من السلطة بينما، في نفس الوقت، تزودهم بمساحات للفعالية وإمكانيات للعمل»[55]. فهذا فيركلاف يقول: «إن إصرار فوكو على الذات كأثر للتكوينات الخطابية له نكهة بنيوية شديدة تستبعد الفاعلية الاجتماعية»[56]. وتنطلق في ذلك من رفض فهم الاجتماعي على أنه محكوم بإيديولوجيا شمولية واحدة، وتستبدل رؤية فوكو الأحادية برؤية أكثر تنوعا تتنافس فيها إيديولوجيات متعددة وبالتالي خطابات متنوعة تكسب الذات مواقف مختلفة، وربما متناقضة، تصدر عنها في كليتها، وبالتالي ليست مجرد قناة ومعبر تُعَبِّرُ من خلالها الخطابات عن نفسها. «إن منظور «الممارسة الاجتماعية» يرى الأعمال من خلال منظور مزدوج: فهي من جهة

53 ياجر، سيفريد، وماير فلورينتاين (2014) «**الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو**»، ضمن كتاب: مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: ووداك روث، وماير ميشيل، ترجمة: حسام أحمد فرج، وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى. ص 86

54 Garrity, Z. (2010). «*Discourse analysis, Foucault and social work research*». Journal of Social Work, 10(2), 193-210. P 205

55 Chouliaraki, L. (2008). «*Discourse analysis*». in The SAGE handbook of cultural analysis. Bennett, T; Frow, J. (eds.), London, UK: SAGE Publications, 2008, pp. 674-698. P 677

56 Fairclough (1992: 45)

تكون الأعمال ملموسة وفردية ومرتبطة بالسياق، ولكن يكون لها، من الجهة الأخرى أيضا، طابع مؤسسي وتكون متجذرة اجتماعيا، ولهذا فهي تميل إلى أن تكون لها أنماط من الانتظام»[57].

2. تحليل الخطاب عند فوكو؛ من الأركيولوجيا إلى الجينالوجيا أو من تحليل الخطاب إلى تحليل السلطة

يستخدم الباحثون في الدراسات الثقافية وعلم الاجتماع والفلسفة مفهوم تحليل الخطاب للإحالة على مجال أوسع يشمل جميع الممارسات الاجتماعية والأفراد والمؤسسات التي تجعل من الممكن أو المشروع فهم الظواهر بطريقة معينة بما فيها ظواهر اللغة والتفاعلات الخطابية والتبادلات الكلامية اليومية. ويهتم تحليل الخطاب بشكل خاص بالسلطة والمعرفة وهو نمط من التحليل متجذر في البنائية الاجتماعية أو ما بعد البنيوية يسعي إلى تحديد كيف أن الخطابات تبني نسخًا منهجية للعالم الاجتماعي حول الطرق التي يتم من خلالها جعل وجود مؤسسات محددة وأدوار للأفراد ممكنا من خلال طرق التفكير والتحدث المختلفة. كان دور ميشيل فوكو مركزيا في النهوض بتحليل الخطاب وتطويره من خلال أعمال نظرية وبحوث عملية استطاعت نقل هذا التخصص المعرفي إلى مجال أرحب يتجاوز التحليلات اللسانية التي أسس لها منذ بداية الخمسينات. لقد أصبحت شخصية فوكو مصدر اقتباس وإحالة وتعليق وتعديل ونقد في كل مقاربات تحليل الخطاب تقريبا، وبالأخص التحليل النقدي للخطاب.

يتحدد هدف فوكو في تحليل الخطاب في دراسة بنيات وأنساق وأنظمة المعارف المختلفة؛ وخاصة أنظمة العلوم الإنسانية والتجريبية بصفة أقل، أي تلك القواعد التي تحدد ما هو حقيقي وما ليس كذلك، وما يمكن أن يقال وما لا يقال. والهدف فيما وراء ذلك [...] هو «الوقوف على المعارف التي تحتويها الخطابات وأشكال التصرفات المختلفة، وكيف أن هذه المعارف ترتبط بعلاقات السلطة على نحو وثيق في أشكال مركبة تشتمل على السلطة والمعرفة جنبا إلى جنب»[58]. و«يركز تحليل الخطاب الفوكوي (Foucauldian discourse analysis) على الموارد الخطابية ويفحص الطرق التي تبني بها الخطاباتُ الأشياءَ والموضوعاتِ وتخلقُ نسخاً معينة من الواقع والمجتمع والهوية بالإضافة إلى الحفاظ على ممارسات ومؤسسات معينة»[59]. إن تحليل الخطاب بهذا الفهوم هو نوع من «التأمل الاستبطاني» (retrospective reflection) المنصب على النصوص المنتجة تاريخيا/ الأرشيف ومحاولة لإنتاج إطار مفاهيمي لتحليل تكوين المعارف وتحولاتها من خلال وصف التشكيلات الخطابية.

57 يورغن، ماريان. فيليبس، لويز (2019). **تحليل الخطاب: النظرية والمنهج**، ترجمة: بوعناني شوقي، الطبعة الأولى، المنامة- البحرين. ص 48

58 ياجر، سيفريد، وماير فلورينتاين (2014) «**الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو**»، ضمن كتاب: مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: ووداك روث، وماير ميشيل، ترجمة: حسام أحمد فرج، وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى. ص 80

59 Georgaca, E., & Avdi, E. (2012). «*Discourse analysis. Qualitative research methods in mental health and psychotherapy: A guide for students and practitioners*», 147-162. P 149

أما موضوع تحليل الخطاب عند فوكو، فهو الأرشيف (Archive)؛ أي «جملة الأشياء التي قيلت في ثقافة ما، وعني الناس بحفظها، وارتفع قدرها عندهم، واستعملوها من جديد، ووقع تكرارها وتحريرها، وباختصار: كل هاته المجموعة المنطوقية التي صنفها الناس واستغلوها في تقنياتهم ومؤسساتهم، ونسجوا سداها من وجودهم وتاريخهم»[60]. لكن «ليس مجموع النصوص التي احتفظت بها الحضارة [في حد ذاتها]، ولا مجموعة الآثار التي تم إنقاذها، ولكن مجموعة القواعد التي تحدد في ثقافة ما ظهور واختفاء الملفوظات واستمرارها ومحوها وبقاءها بوصفها أحداثا وأشياء»[61]. وينصرف على جميع الخطابات التي قيلت بالفعل في وقت محدد والتي لا تزال موجودة عبر التاريخ في أشكال تراثية ونصب تذكارية.

إن الأرشيف، إذاً، هو موضوع تحليل الخطاب والوصف الأركيولوجي، بوصفه ممارسة خطابية مؤسسة على قواعد وشروط ومبادئ تتعلق بتشكل الخطابات وتحولها، وشروط ظهورها وتراكمها وتسلسلها، وأشكال وجودها وانبثاقها أو تلاشيها وامحائها وضياعها ونسيانها. وإنجاز تحليل خطابي ووصف أركيولوجي لهذه الكتلة من الوثائق التي يتحدد الأرشيف بمقتضاها يعني فهم قواعدها وممارساتها وشروطها وأداءها.

إن هدف فوكو لم يكن إطلاقا تحليل معنى الخطابات، ووصف التشكيلات البنائية للغة، وإنما وصف الوجود التراكمي للخطابات ووظائفها المختلفة في التاريخ، وتحليل الخطاب بهذا المعنى نوع من الكشف عن سلطة الخطاب وقدرته ووظائفه والآليات التي تحكمه وتحد من سلطانه، و«إنَّ إجراءً تحليلياً من هذا القبيل موجه قصدا إلى تداولية اجتماعية تاريخية للممارسات الخطابية باعتبارها قابلة للمفهمة كوقائع خطابية مبنية في إطار مكاني وزماني إبستيمي»[62].

يميز الباحثون، عادة، في تحليل الخطاب الفوكوي بين طورين اثنين؛ طور مبكر «أركيولوجي» تمحور حول تحليل الخطاب، وطور متأخر «جينالوجي» تركز حول تحليل السلطة، وهناك من يضيف طورا ثالثا يتركز حول دراسة التقنيات الأخلاقية للذات[63]. لكن مع ذلك يمكن النظر إلى تحليل الخطاب الفوكوي على أنه متصل لا قطائع فيه، فقد استمر في اعتماد آليات تنتمي إلى الطور الأول في أعماله المتأخرة، وإذا كان معنيا في هذا الطور بالدراسة الأركيولوجية للقواعد والمبادئ التي تحدد الملفوظات/ الخطابات التي تُتَقبل بوصفها حقيقة وصحيحة في فترة تاريخية محددة، فإن هذا المرمى استمر في جل أطوار التفكير الفوكوي؛ ذلك أن تعامل فوكو مع الأشكال الواقعية للاستخدام اللغوي، وفق مبادئ الأركيولوجيا، لم يكن

60 فوكو، ميشال (1987)، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 128

61 Revel, J. (2002*). Le vocabulaire de Foucault*. Paris: Ellipses. P 8

62 شارودو، باتريك. منغنو، دومينيك (2002/ 2008)، **معجم تحليل الخطاب**، ترجمة: المهيري، عبد القادر. وصمود، حمادي، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة- تونس، ص 61

63 Chouliaraki, L. (2008). «*Discourse analysis*». in The SAGE handbook of cultural analysis. Bennett, T; Frow, J. (eds.), London, UK: SAGE Publications, 2008, pp. 674-698. P 676

منفصلا عن أسئلة السلطة والذات، أي الفواعل والعلاقات والممارسات التي يتم من خلالها إنتاج الخطاب. ارتبط التحليل الأركيولوجي بأعمال فوكو الأولى التي يحمل بعضها، فضلا عن عنواها الرئيسي، عناوين فرعية صُدِّرت كلها بمفهوم «أركيولوجيا»، من قبيل؛ تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي 1962، ومولد المصحة؛ أركيولوجيا النظرة الطبية 1963، والكلمات والأشياء؛ أركيولوجيا العلوم الإنسانية 1966، غير أن هذا المنهج في التحليل قد بلوره فوكو بشكل نظري بظهور كتابه «أركيولوجيا لمعرفة 1969».

يتحدد موضوع الأركيولوجيا في رصد الأرشيف ووصفه، وهو غير الإبستمولوجيا النقدية المهتمة بأسس العلم وفرضياته ومسلماته، كما أنه ليس تاريخا للفكر الذي يتتبع نشوء الأفكار وتطورها وتحولها، إن الأركيولوجيا، كما يقول فوكو: «تخل مطلق عن تاريخ الأفكار، ورفض منهجي لمسلماته وطرقه، ومحاولة لإقامة تاريخ آخر لما قاله البشر»[64]. كما أنه رصد للأرشيف وصف له بوصفه، كما سبق، جملة من الملفوظات التي تبني مجالا معرفيا في سياق مكاني وزماني معينين، بهدف الكشف عن النظم الفكرية والمعرفية والسياسية والاجتماعية السائدة في مرحلة تاريخية محددة. يهتم التحليل الأركيولوجي بالخطابات كممارسات لها قواعد انبثاق وظهور، واستمرار وتحول، واضمحلال واختفاء، «لقد فهم [فوكو الأركيولوجي] أن الممارسات الثقافية أبعد أساسا من التشكلات الخطابية (أو من أي نظرية أخرى) وأن جدية هذه الخطابات لا يمكن فهمها إلا بقدر ما نندمج في مسار تطور المجتمع تاريخيا»[65].

انتقل فوكو من التحليل الأركيولوجي إلى الجينالوجي، كما أشرت لذلك سابقا، في ظل ظروف علمية وسياسية تاريخية حتمت عليه التخلي عن منهج وصف الأرشيف لبحث مصادر المعنى خارج ثنائية المعرفة/ الخطاب. تتحدد الأولى في المشاكل العلمية التي قَصُرت الأركيولوجيا عن مواجهتها، وخاصة مشكلة المعنى. أما الثانية، فقد ارتبطت بأحداث مايو 1968 وما حملته من قضايا ومسائل، وخاصة قضية السلطة بجميع أشكالها، والتي عجزت الأركيولوجيا على مناقشتها، وذلك بسبب انغلاقها في الوصف المحض للخطابات، كأحداث تاريخية، إذ لم يكن لها هدف آخر غير هدف الوصف والتحليل بعيدا عن كل تفسير أو تأويل[66].

استعمل مفهوم «الجينالوجيا» تاريخيا ضمن مجالات ثلاثة؛ في التاريخ الاجتماعي، حيث يتم بحث أنساب العائلات وخاصة الممتدة والكبرى بالمعنى القيمي، وفي علم الأحياء والتاريخ الطبيعي وارتبط مضمونه بسيغموند فرويد، وإن لم يستعمله بنفسه، حيث يتم البحث في أصل الأنواع وتطورها ورقيها وتحولها إلى كائنات أنواع أخرى حسب نظرية التطور والارتقاء. وفي الفلسفة، وخاصة فلسفة الأخلاق

64 فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. ص 132

65 شارودو، باتريك. منغنو، دومينيك (2002/ 2008)، **معجم تحليل الخطاب**، ترجمة: المهيري، عبد القادر. وصمود، حمادي، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة- تونس، ص57

66 ينظر: بغورة، الزواوي (2000)، **مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو**، المجلس الأعلى للثقافة. ص 125

حيث يتم بحث أصل المبادئ والأحكام الأخلاقية، ومن أبرز من استعمله نيتشه في كتابه جينالوجيا الأخلاق. استعمله فوكو للتأريخ للأفكار والموضوعات بتتبع بداياتها التاريخية وتحولاتها في الزمن، وفي دراسة أشكال المعرفة والسلطة أو أشكال الهيمنة والإخضاع في التاريخ، «لا بهدف إثبات معقولية تلك الأصول ووحدتها وثباتها وخلودها عبر الزمن، ولا بهدف تأكيد تساميها على الزمن والتاريخ وتحكمها في سيرورته، بل بهدف تحليلها ونقدها وتبيان تشظيها وتعددها واختلافها، وإبراز طابعها النسبي والتاريخي والدنيوي وإثبات انتمائها إلى هذا العالم بكل ما يعتمل فيه من صراعات وأحقاد وعربدات للغرائز، وقطائع وتحولات، ومصالح شخصية وفئوية متضاربة»[67].

ادعى فوكو بأن تحليل الخطاب لا يكتمل باعتماد الوصف الأركيولوجي وحده؛ لأن مكونات السلطة والعناصر التاريخية التي تكون الخطاب ويكونها تنتج شبكه معقدة ومتداخلة من المعاني والتعريفات والعلاقات المعنية على مدار فترات ممتدة. وبالتالي، يجب أن ينظر إلى تحليل الخطاب من منظور جينالوجي نيتشوي. وبالانطلاق من المجال الغربي يؤكد بأن علاقات السلطة في الحضارة الغربية الحديثة يمكن تمثيلها على أنها ناتجة عن العديد من التغييرات المفاهيمية الرئيسية في الفكر الاجتماعي الذي بدأ في حوالي القرن السابع عشر، حيث تطور العلوم الفيزيائية، والثورة الصناعية، وصعود الدول القومية الرأسمالية، وفي الوقت نفسه بدأ الفلاسفة يؤسسون لما كان يسمى بـ«المنظور الإنساني». رافق هذه التغييرات تحول تدريجي أعاد صياغة إرادة الإنسان وافتراضاته الحديثة المتعلقة بالسلطة والمجتمع والعلوم ومفهوم الفعالية البشرية.

حرر ظهور العلوم الفيزيائية فهمنا للعالم المادي من المفاهيم التقليدية المرتبطة بالدين والخرافات. وبالتزامن، أكد المنظور الإنسانوي على الحرية والمساواة والإخاء بين البشر، أو على الأقل مجموعة مختارة من الأشخاص الذين يعرفون كبشر من قبل أولئك الذين في مواقع السلطة، وكان هذا التوجه الفلسفي يتناقض مع المعتقدات التقليدية حول الأشخاص الذين تمتلكون السلطة في ظل الملكية الدينية. وكان أفضل تغيير موثق في الحضارة الغربية خلال هذا الوقت هو الثورة الصناعية والارتفاع المتزامن للاقتصادات الرأسمالية، حيث أصبحت تعبئة مجموعات كبيرة من العمال المدربين كمورد عمل للاقتصادات الرأسمالية مهمة للمنافسة الناجحة بين الدول، واقتضى استمرارية هذا النظام مجموعات مستقرة من الأشخاص المدربين الذين يتم استنساخهم بأعداد كافية. وبالتالي فإن التجديد التدريجي والثابت لقوة العمل السهلة الانقياد والمستقرة أمر بالغ الأهمية للدولة القومية الرأسمالية الناشئة؛ إذ تتطلب الرأسمالية أشخاصا مدربين على الأقل للعمل الصناعي، خاصة وأن القوى العاملة ليست قابلة للتبديل كما كانت في الاقتصادات الإقطاعية. أصبحت المشورة الفنية لتأثير الهيئات البشرية الفردية والسيطرة عليها، والقلق من صحة واستقرار وتكاثر

67 حيمر، عبد السلام (2008)، **في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر. ص 240

العمال حاسما لنجاح الرأسمالية. وبهذه التحولات في الثقافة الغربية (العلوم التجريبية، والعلوم الإنسانية، والرأسمالية) يؤكد فوكو التحول في تصور السلطة، ومعه يؤكد ضرورة تأسيس تحليل الخطاب على وصف علاقات السلطة بدل الاقتصار على وصف الأرشيف فقط[68].

خلاصة

تستلهم جل مقاربات التحليل النقدي للخطاب تصور فوكو للخطاب باعتباره جملة من الملفوظات، وأنظمة صنع المعنى المختلفة، التي تحكمها قواعد ثابتة نسبيا تفرض قيودا على ظهورها وانبثاقها واستمرارها وتحولها وأشكال توظيفها واستعمالها، وضبط منافذ الوصول إليها، كما تأخذ بالمثل مفهومه للسلطة باعتبارها ممارسة تخترق جميع مستويات الحياة الاجتماعية ولا تقتصر فقط على الممارسات التعسفية الواضحة القائمة على العنف. غير أن هذه المقاربات ترفض توجه فوكو القائم على تحديد نظام واحد للمعرفة في كل مرحلة تاريخية، مقترحة في المقابل أن المشهد الاجتماعي مليء بالصراعات وتوجد فيه أنظمة للمعرفة، وبالتالي أنظمة خطاب مختلفة تعبر عنها وتمثلها، وهي أنظمة متصارعة تتنازع الحق في تعريف الحقيقة وبالتالي الهيمنة. وقد «شاعت في مختلف هذه المقاربات استعارة مفاهيم «نظام الخطاب» و«السلطة/ المعرفة»»[69].

اشتهر فيركلاف، من بين باحثي التحليل النقدي للخطاب، بالاعتماد كثيرا على ميشيل فوكو في تحديد الخطاب وأنظمته، ففي مؤلفاته التأسيسية نجده يستعير «نظام الخطاب» من فوكو ويحدده تبعا له بأنه: «في الحقيقة نظام اجتماعي ينظر إليه من منظور خطابي محدد، أي من حيث أنماط الممارسة التي ينقسم إليها الحيز الاجتماعي ويتصادف أن تمثل أنماطا للخطاب»[70]. ووصفه بأنه «مجموعات معينة من الأنواع والخطابات والأنماط، إن الطريقة التي يتم بها تنظيم هذه الأنظمة، وأنماط صنع المعنى المشروعة، هي موضع نزاع مستمر وتخضع لصراع مستمر»[71]. كما يستعير منه، بالمثل، مفهوم «تكنولوجيات الخطاب» بوصفها «جهدا واعيا لفهم وإعادة تشكيل وإعادة إنتاج الممارسات الخطابية التي تفيد بعض مشاريع الهيمنة المسندة بالإيديولوجيا»[72]، من خلال الاعتماد على فكرة فوكو عن التقنيات باعتبارها تأسيسية للسلطة في المجتمع الحديث.

---

68 Powers, P. (2007). «*The philosophical foundations of Foucaultian discourse analysis*». Critical approaches to discourse analysis across disciplines, 1(2), 18-34. P 26

69 Blommaert, J. (2008). Discourse: A Critical Introduction. P 27

70 فيركلاف، نورمان (2016)، **اللغة والسلطة**، ترجمة: محمد عناني، ص 50

71 Fairclough, N. (1992). *Discourse and social change*. Polity Press. p 88- 89

72 Forchtner, B, and Wodak, R (2018), Critical Discourse Studies A critical approach to the study of language and communication, P 139

وبشكل عام، يتبنى فيركلاف وجهة نظر فوكو للخطاب باعتباره آلية تكوينية للموضوعات والعلاقات الاجتماعية والأشياء والأطر المفاهيمية. وبالتالي التأكيد على أن ممارسات الخطاب مترابطة ومرتبطة ببعضها البعض؛ وللسلطة والسياسة والتغيير طبيعة خطابية. لكن هذا لا يعني أن فيركلاف وغيره من محللي الخطاب يقبلون كل جوانب برنامج فوكو. فعلى العكس من ذلك ينتقد فيركلاف مفهوم تحليل الخطاب شديد التجريد المفتقر إلى الاعتماد على الخصائص اللسانية لدى فوكو، وكذلك الإقصاء المبالغ فيه للذات بإفراغها من فاعليتها الاجتماعية وجعلها مجرد عناصر تشكلت بفعل الخطاب. ويرجع بعض الباحثين استلهام التحليل النقدي للخطاب لأفكار فوكو إلى التأثر بالدراسات الثقافية البريطانية، خاصة فيما يتعلق بحالة فيركلاف وبول شيلتون وفان لوفيين وغانثر كريس وغيرهم من البريطانيين.

المصادر والمراجع:

بغورة، الزواوي (2000)، **مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو**، المجلس الأعلى للثقافة.

بغورة، الزواوي (2015)، **الخطاب؛ بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشيل فوكو- دراسة ومعجم**، مكتبة لبنان ناشرون/ صائغ، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى.

حيمر، عبد السلام (2008)، **في سوسيولوجيا الخطاب من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

شارودو، باتريك. منغنو، دومينيك (2002/ 2008)، **معجم تحليل الخطاب**، ترجمة: المهيري، عبد القادر. وصمود، حمادي، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة- تونس.

فوكو، ميشال (1980)، «**الحقيقة والسلطة، مقابلة مع فونتانا**»، مجلة الفكر العربي المعاصر- عدد 1.

فوكو، ميشال (1987)، **حفريات المعرفة**، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء.

فوكو، ميشيل (1984)، **نظام الخطاب**، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت- لبنان.

فوكو، ميشيل (1990)، **إرادة المعرفة**، ترجمة: أبي صالح، جورج، مركز الإنماء القومي، بيروت.

فيركلاف، نورمان (2016)، **اللغة والسلطة**، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، مصر، عدد: 2555، الطبعة الأولى.

ياجر، سيفريد، وماير فلورينتاين (2014) «**الجوانب النظرية والمنهجية في التحليل النقدي للخطاب وتحليل التصرفات لدى فوكو**»، ضمن كتاب: مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: ووداك روث، وماير ميشيل، ترجمة: حسام أحمد فرج، وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى.

يورغن، ماريان. فيليبس، لويز (2019). **تحليل الخطاب: النظرية والمنهج**، ترجمة: بوعناني شوقي، الطبعة الأولى، المنامة- البحرين.

Blommaert, J. (2008). Discourse: A Critical Introduction. Linguistische Berichte, 2008(214), 249-250

Chouliaraki, L. (2008). «*Discourse analysis*». in The SAGE handbook of cultural analysis. Bennett, T; Frow, J. (eds.), London, UK: SAGE Publications, 2008, pp. 674-698

Forchtner, B, and Wodak, R (2018), Critical Discourse Studies A critical approach to the study of language and communication, in Wodak, R., & Forchtner, B. (Eds.). The Routledge handbook of language and politics. London and New York: Routledge. P 139

Garrity, Z. (2010). «*Discourse analysis, Foucault and social work research*». Journal of Social Work, 10(2), 193-210

Garrity, Z. (2010). «*Discourse analysis, Foucault and social work research*». Journal of Social Work, 10(2), 193-210

Georgaca, E., & Avdi, E. (2012). «*Discourse analysis. Qualitative research methods in mental health and psychotherapy: A guide for students and practitioners*», 147-162

Powers, P. (2007). «*The philosophical foundations of Foucaultian discourse analysis*». Critical approaches to discourse analysis across disciplines, 1(2), 18-34

Powers, P. (2007). «*The philosophical foundations of Foucaultian discourse analysis*». Critical approaches to discourse analysis across disciplines, 1(2), 18-34

Revel, J. (2002). *Le vocabulaire de Foucault*. Paris: Ellipses.

Revel, J. (2002*). Le vocabulaire de Foucault*. Paris: Ellipses.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022